جمالية الخطاب
في النص القرآني

"قراءة تحليلية في مظاهر الرؤية وآليات التكوين"

الدكتور
لطفي فكري محمد الجودي

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع

جمالية الخطاب
فى النص القرآنى

اسم الكتاب : جمالية الخطاب فى النص القرآنى
اسم المؤلف : لطفى فكرى محمد الجودى

الطبعة الأولى

1435 هـ ـ 2014م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

رقم الإيداع :21969 / 2013
الترقيم الدولى: 978-977-382-196-9

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع

الإدارة: 16 ش محمد حسن الجمل ـ عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفون: 22713202- 22713945

المكتبة: 33 ش محمد عبده ـ خلف جامع الأزهر ـ القاهرة

تليفون: 25105891

E-mail:mokhtar_est@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« ما من آية فى كتاب الله ولا كلمة فى الوجود إلا ولها ثلاثة أوجه، جلال وجمال وكمال. فكمالها: معرفة ذاتها، وعلة وجودها، وغاية مقامها. وجلالها وجمالها: معرفة توجهها على من تتوجه عليه بالهيبة والأنس، والقبض والبسط، والخوف والرجاء » ابن عربى.

إهـــداء

لأنهم يجسدون مبعث هوية رؤياي الجمالية فلا ضير أن يكون إهدائي إليهم هكذا:

ـ أمي الغالية:

نبعاً ترتسم في قسمات جبينه أجمل أزمنة الماضي والحاضر والغد ...

ـ زوجي الحبيبة:

عشقًا جماليًا تمتزج فيه ثمار الرفقة بأمكنة الجذب الممتد ...

ـ أولادي: (أحمد. عبد الرحمن. عمر . ديمة):

بديلاً جماليًا حين ألوذ بهم في ساحات أزمنة الفقد...

ـ شيخي: (أ.د. أحمد سعد الخطيب):

مربيًا فاضلاً علمني أن جمال الكلمة يكمن في نبل القصد ...

ـ وطني: (مصر):

حنينًا أبديًا نتأطر عبر تخومه حين تفرقنا ستاهات البعد...

تقديم بقلم العلامة

أ.د.أحمد سعد الخطيب (*)

أحمدك ربى بجميع المحامد، لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك وأتوب إليك، وأصلى وأسلم على أكرم خلقك، وأعظم رسلك محمد صلى الله عليه وسلم، وأشهد ألا إله إلا أنت، وأن محمدا عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك، وأن القرآن خير كتاب أنزل على خير نبى أرسل.

أما بعد..

فإن تصريف القول فى القرآن وتنوع أساليبه لأمر يسترعى الانتباه، ولا ينقضى منه العجب، وذلك أنك واجد ما هو سبب للعيب فى كلام الناس ومدخل لغمزه بالسماجة وعدم الفصاحة، هو فى القرآن من أسباب بلاغته ودلائل إعجازه.

فالتكرار مثلا فى كلام الناس ملام معيب لكنه فى القرآن الكريم بلاغة وفصاحة، وسر من أسرار إعجازه، فهو ليس تكرارا محضا ولكنها صور فنية أدبية ينقلك القرآن منها وإليها لتجد نفسك غارقا فى متعة موصولة بين ما انتقلت منه وما انتقلت إليه.

تأمل ذلك فى القصص القرآنى، كقصة آدم عليه السلام وقصة موسى عليه السلام وغيرهما من القصص القرآنى.

(*) أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم فى جامعة الأزهر وجامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة العربية السعودية، وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية الأسبق جامعة الأزهر.

ومما يلام فى كلام الناس ويعاب الاستعانة بالمُعرَّب مع وجود العربى، وليس الأمر كذلك فى القرآن الكريم فى حالة التسليم بوجوده فيه، فهو فى موضعه أنيق فصيح لا يقوم غيره مقامه لو حاولت تبديله به. قال إمام الحرمين الجوينى فى التأكيد على ذلك: إن قيل إن "إستبرق" ليس بعربى وغير العربى من الألفاظ دون العربى فى الفصاحة والبلاغة فنقول لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها فى الفصاحة لعجزوا عن ذلك. أ.هـ

ناهيك عما جادت به كتب السير والتاريخ عن التأثير العجيب للقرآن على العرب الأقحاح، فدانوا له خضوعا لسلطان بلاغته وفصاحته، وأغرقوا فى مدحه وهم يومئذ المتربصون به، الحريصون على غمزه وإعابته.

ولقد برز لى يوما هذا السؤال: أليس القرآن قد نقل وصف القرآن للرسول بأنه شاعر وأنه كاهن؟ ثم نفاه بقوله ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الحاقة: ٤١، ٤٢) فلِمَ اختلق العرب هذه الفرية، وألصقوا به هذه التهمة؟

فما إن أغرقت فى التأمل حتى تهادى إلى هذا الجواب:

العرب لم يقصدوا أن يعيبوا القرآن بنعته بالشعر أو الكهانة أو السحر، ولا يعدو وصفهم بذلك كله أن يكون وصف الصدمة الأولى؛ إذ إنهم لما سمعوا القرآن وأدركوا تميزه على كلامهم وصفوه بأفضل ما يعرفون، فهم لا يعرفون من الكلام أبلغ من الشعر ومن القوة الذاتية للأفراد أفضل مما للكهان الذين كان لهم اتصال بالجن، حيث كانت العرب تفزع إليهم بين الحين والآخر ليرسموا لهم خط مستقبلهم، ويلجئون إليهم قبل أسفارهم ليباركوا لهم سفرهم، أو ليردوهم عنه.

لكن لما استفاقت العرب من هول الصدمة بدءوا يفكرون ويدركون أنهم أمام كلام هو نسيج وحده بلا نظير ولا شبيه، وأنه لعلو بلاغته المجاوزة لطاقة البشر لا يقاوم ولا يعارض، وأنه ليس أمامهم إلا الإذعان له، خصوصا أنه قد تحداهم واستنفر حماستهم واستنهض همتهم ليعارضوه بسورة منه، ومع توفر الدواعى للقيام بأمر هذه المعارضة ضعفوا وعجزوا.

حتى أقر الوليد بن المغيرة فى لحظة يقظة ضمير بفضل القرآن ونفى عنه أن يكون شعر شاعر أو زمجرة كاهن. وقال كلامه الذى اشتهر اشتهار الأمثال:

"لقد رأينا الكهان فما هو بزَمْزَمَة الكاهن ولا سجعه. و لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهَزَجَه وقَرِيضَه ومَقْبُوضه ومَبْسُوطه، فما هو بالشعر، ولقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عقْدِهم. قالوا: فما نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه". نعم، إنه سحر بيان القرآن الذى لا ينقضى منه العجب، ولا ينضب عطاؤه على كثرة الناظرين إليه، وكلما زدته نظرا زادك من عطائه وأضفى عليك من متعه.

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

وامتدادا لجهود الأوائل فى الكشف عن جمالية التعبير القرآنى وصوره الأدبية البيانية يأتى كتاب (جمالية الخطاب فى النص القرآنى قراءة تحليلية فى مظاهر الرؤية وآليات التكوين) لأخينا المفضال فضيلة الدكتور لطفى فكرى محمد الجودى وكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين فى قنا - جامعة الأزهر الشريف، وهو كتاب نَهِمٌ يفتح شهية النفس التواقة للتذوق الجمالى أن تجول فى تعابير الكتاب العزيز لتبلغ مطمعها، وما هى ببالغته، فهو لا يُشبع منه ولا يُرضى منه بالقليل. وحسب البليغ أن يقف على معينه ليرشف من بلاغته ويغترف من بحاره ما يرضى قناعته إلى حين.

ولن أصادر على حق القارئ فى أن يستمتع بهذا الكتاب الرائع، وأن يكتشف بنفسه مظاهر روعته، ويقدر جهد مؤلفه، الذى نسأل الله له العون والسداد، والتوفيق والرشاد.

أ.د. أحمد سعد الخطيب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أنيس الذاكرين الشاكرين، وغاية الساعين المشتاقين، وهادى المجاهدين فيه إلى سبل اليقين، جمال كل جمال، وكمال كل كمال، وجلال كل جلال، والصلاة والسلام على من نزل على قلبه أكمل وأجمل بيان، سيدنا محمد سراج قلوب السالكين، وجنة مشهد المحبين، ولواء تاج العارفين، وجلال جمال الهائمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.. أما بعد.

فإن المعايشة فى ظل القرآن الكريم شرف، لا يدانيه شرف، فهو الخطاب الربانى المعجز الذى أشرقت منه شمس الكلمة الأولى فبددت أنوارها ظلمات الوجود.

لا بد فى البداية من الاعتراف بأن البحث فى النص القرآنى قد شغل عندى هاجسا قديما،لم يتركنى قط، إلا وعاودنى من جديد، فكان كلما مر بى موضوع وثيق الصلة بالقرآن الكريم، أشرعت قلمى متحفزا، لكن سرعان ما يزول وهج هذا التحفز مع الكلمات الأولى.. التى أراها لا تنبيء بجديد غير ما قدم الآخرون.

غير أن هذا الهاجس قد استحال ـ بعون الله وقدرته ـ إلى حقيقة واقعة، بطرح هذه المقاربة (جمالية الخطاب فى النص القرآنى قراءة تحليلية فى مظاهر الرؤية وآليات التكوين)، والتى أحسست من خلالها أنى بصدد مقاربة ذات أبعاد جمالية متعددة، تشتغل على النص القرآنى، وتتنوع فيها أدوات التحليل وزوايا الرؤية، عبر التفاعل الدائب بين التحليل الأسلوبى والاكتناه المعرفى والحضور الجمالى.

نبعت أهمية هذه الدراسة المتواضعة وتعاظمت قيمتها من محاولتها الولوج إلى النص القرآنى كمعجزة إبداعية جمالية كبرى، والتأمل فى سعة خطابه، والوقوف

على بعض جوانب بيانه، الذى لايدانيه بيان.. فهو الكتاب الربانى الذى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾(١).

ولا خلاف فى أن القرآن الكريم هو الفضاء الروحى والفكرى الذى صاغ الهوية الحضارية العربية الإسلامية، وهو النبع المتدفق الذى يرفدنا بالمعنى والقيمة، فإذا كان هو كذلك فلم لا ننحاز إليه ونتمركز حوله؟ كى نستكشف ماهيته الجمالية، ونبحث فيه عن أسس لاشتغالات جمالية عربية إسلامية، ذات مضمون روحى، تجدد رسالته، وتعمل على ترسيخ قيم الحسن والجمال، حتى يفيد منها الإنسان فى بناء وتطوير ذاته معرفيا وسلوكيا وذوقيا..وبخاصة فى هذا العصر.

والجمالية التى أقصدها هنا فى هذه الدراسة، هى كل ما يدل على خصوصية فى طريقة الأداء فى الخطابات النصية الإبداعية، وهى خصوصية تترك شعورا يلقى بظلاله على الصياغة الفنية، بحيث يكون قادرا على إثارة انفعالات المتلقين وعواطفهم، فيحقق لديهم متعة ولذة واستجابة.

وإذا كانت الخطابات النصية الإبداعية لا تخرج عن كونها ممارسة تُؤدَى عبر وسيط هو اللغة، فإن ارتباط هذه اللغة بـ(النص القرآنى) أسهم فى إيجاد (فواتح/ فضاءات) معرفية، تتيح لنا قراءة الخطاب القرآنى من منظور مفاهيم تحليل الخطاب كبعد تواصلى، يتيح لنا التعرف على تمظهراته المعرفية والجمالية التى تَكَوَّن من خلالها.

ولأن أى عمل لا يحوز قيمته إلا بحوافزه، فإنه يمكن القول بأن الحوافز الدافعة لاختيار هذا الموضوع تبدت فى رغبة الباحث فى ولوج اتجاهات البحث اللسانى، والاسترشاد بها فى التعرف على أهم منطلقات الخطاب داخل النص القرآنى، والكشف عن آليات تلقيه المعرفية والجمالية.. بما يتيح لنا الانعتاق من بوتقة الدراسات التقليدية التى غلبت عليها سمة الاجترار.

---

(١) سورة: (فصلت ـ آية:٤٢)

وليس معنى هذا أننى فى هذه القراءة سوف أتدثر كليا باستخدام منهج الأدوات اللسانية الحديثة التى تتجلى فى أشكال الإبداع البشرى، وبخاصة بعدما ظهرت قراءات جديدة للقرآن الكريم تتكيء على هذه المناهج، مما أدى إلى تحريف المعانى القرآنية، وإخراج النصوص عما هو مجمع عليه، ومعاملتها كنص بشرى. لكن الحذر والاحتياط لهذه المناهج لا يعنى أن ننغلق على ذواتنا ونحجب عليها فى مسعى أوهام التعامل مع الوافد من ثقافة الآخر، وحينئذ فلا مانع فى مقاربة الخطاب القرآنى من الاسترشاد بهذه المناهج اللسانية الحديثة بما يخدم هدف البحث، وذلك بانتخاب قراءة إيجابية للنص القرآنى، تحفظ عليه خصوصياته التعبيرية والتواصلية، وتحقق مقاصده، وتكشف عن جماليات بنائه التركيبى المتماسك، الذى يتمايز به عن غيره ككتاب هداية؛ يبصر الناس بما يحقق لهم الصلاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة.

كما استخدمت الدراسة المنهج الوصفى التحليلى، الذى يتوافق ـ تماما .. مع طبيعة الموضوع المعالج، إذ حاولت من خلاله الوقوف على ما يعرض من ظواهر ومفاهيم، فقمت بشرحها، وضبطها، ومعرفة وسائل أدائها، وتحليليها، ثم نمذجتها بالمثال القرآنى.

إن ما تروم إليه هذه الدراسة هو الكشف عن الكيفية التى يتشكل بها الخطاب داخل النسق القرآنى معرفيا.. وجماليا، عبر قناة اللغة بمستوياتها كافة، مما يتأكد معه بشكل عملى أن النص القرآنى معجزة ربانية لا مثيل لها فى الوجود الراهن. وقد اضطلعت الدراسة فى طرح رؤيتها من خلال إشكالية تتمثل فى ثلاث مجموعات من التساؤلات الكبرى التى يمكن أن نجملها فيما يأتى:

أولا ـ ما مفهوم الجمالية، وكيف تشكلت صورتها فى المنظور الفكرى العربى والغربى، وما اشتغالاتها النصية التى تتحيز لها؟

ثانيا ـ ماذا نعنى بالخطاب، وما علاقته بالنص القرآنى، وكيف تبلور نسقيا بداخله، وما أبرز تمظهراته المعرفية، وما قيمته التواصلية فى عملية التلقى؟

ثالثا ـ كيف تشكل الخطاب فى النص القرآنى حضورا جماليا، وما آليات هذا الحضور، وما مدى توافق هذه الصورة مع المعطى الدلالى للخطاب داخل المتن القرآنى؟

وقد اقتضت الإجابة على هذه التساؤلات أن قطعت الدراسة مسافة ليست بالقصيرة، عبر مجموعة من الفصول والمباحث التى جاءت متدرجة فى مبناها بما يتناسب مع طبيعة الموضوع المطروح، هى على النحو التالى.

ـ الفصل الأول: (الجمالية: قراءة فى انبثاق المصطلح)، وفيه عرضت من خلال نقاط بحثية ثلاث لمفهوم الجمالية، وانبثاقاتها التاريخية فى المنظور العربى والغربى: فلسفيا وفكريا وأدبيا، واشتغالاتها النصية التى تتحيز لها داخل الخطابات النصية الأدبية والقرآنية، والكيفية التى استطاعت من خلالها أن تتمظهر جماليا داخل هذه النصوص.

ـ الفصل الثانى: (الخطاب القرآنى: المفهوم ومظاهر الرؤية) والذى تضمن أيضا ثلاث نقاط بحثية تناولت مفهوم الخطاب بوجه عام، والقرآنى منه بوجه خاص، كما عرضت لملامح بنيته التكوينية التى يتأسس عليها، والصورة التى يتهيأ من خلالها أدبيا، ودوره كأداة تواصلية فى تبليغ المخاطب.كما بحثت الخطاب القرآنى عبر تمظهراته المعرفية والتى تجلت فى أربعة خطابات هى: الخطاب الإقناعى، والخطاب الحوارى، والخطاب القصصى، والخطاب الساخر.

ـ الفصل الثالث: (الخطاب القرآنى وآليات التكوين الجمالى) والذى أخذ على عاتقه استظهار آليات التكوين الجمالى فى الخطاب القرآنى، وكيف تشكلت معطى جماليا طاغيا عبر بنيات نصية تحتفى بتناغم الإيقاع الصوتى، والحشد المشهدى لمفردات الصورة المجسدة، والبناء السردى المتنوع، والانسجام والتماسك النصى الذى أوجد تماهيا عجيبا بين سور وآى النص القرآنى.

ـ الخاتمة: وقد اشتملت على ملخص البحث، ورصد عام لمجمل ما توصل إليه من نتائج.

ثم اختتمت الدراسة برصد لأهم المصادر والمراجع التى أفادت منها وأسهمت فى إنجازها، وأخيرا مسرد عام بموضوعات الدراسة.

وفى النهاية أتوجه إلى المولى ـ عز وجل ـ أن تكون هذه الدراسة واحدة من السبل الموصلة لإدراك بعض أسرار الإعجاز اللغوى للخطاب القرآنى، ومحاولة صادقة لاكتناه جمالياته، وفهم بعض من سيل عطاءاته التى لا تنضب.

والله الموفق.

الدكتور
لطفى فكرى محمد الجودى
أستاذ الأدب والنقد المساعد
جامعة الأزهر

الفصل الأول

الجمالية

(قراءة فى انبثاق المصطلح)